



إبَارشِيَّة جَنُوبِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْآمَرِيكِيَّةِ الرَّسَالَةُ الشَّهْرِيَّةُ لِلرَّهْبَانِ وَالرَّاهِبَاتِ وَالْمَكْرَسِينَ وَالْمَكْرَسَاتِ دَيْسَمْبَرُ ٢٠١٧

أَحِبَائِي،

سَلَامٌ وَنِعْمَةٌ.

فِي مِثْلِ هَذَا الشَّهْرِ مِنَ الْعَامِ الْمَاضِي كَتَبْتُ لَكُمْ عَنِ كَوْنِنَا قَادَةَ فِي حَيَاتِنَا الرُّوحِيَّةِ وَنَاقَشْنَا بَعْضَ صِفَاتِ هَذَا الْقَائِدِ.

هَذَا الشَّهْرِ أُوَدُّ أَنْ أَضِيفَ إِلَى هَذَا مِنْ خِلَالِ الْإِشَارَةِ لِفَضِيلَةِ الصَّمْتِ وَأُوَدُّ أَنْ أَخْتَمَ بِالتَّأَمُّلِ فِي تَأْثِيرِ صَمْتِنَا عَلَى الْآخَرِينَ.

نَقْرَأُ فِي سَفَرِ الْأَمْثَالِ: "كَثْرَةُ الْكَلَامِ لَا تَخْلُو مِنْ مَعْصِيَةٍ، أَمَّا الضَّاطُّبُ شَفَتَيْهِ فَعَاقِلٌ" (أَم. ١٠: ١٩)، الْمَسْكِينُ بِالرُّوحِ لَا يَتَحَدَّثُ كَثِيراً، وَلَكِنْ بِالْحَرِيِّ يَحْفَظُ نَفْسَهُ سَاكِناً لِيَسْمَعَ صَوْتَ اللَّهِ. يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَأَمَّلَ فِي حَيَاةِ أَمْنَا الْقَدِيْسَةِ مَرْيَمَ، وَكَمْ مِنْ كَلِمَاتِهَا سُجِّلَتْ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟! كَوْنِنَا أُمُّ اللَّهِ، فَإِنَّا نَفْتَرِضُ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَدَيْهَا الْكَثِيرُ مِمَّا يُقَالُ، أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ، كَمَا نَعْرِفُ، فَإِنِ الْقَدِيْسَةُ مَرْيَمَ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِي جِيلِهَا. قَدْ حَفِظَتْ أَسْرَارَ قَلْبِهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَفِي الْمَقَابِلِ مَنْحَهَا اللَّهُ أَعْظَمَ هِبَةٍ. وَالْيَوْمَ الْعَالَمُ كُلُّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْ أَمْنَا الْمُبَارَكَةِ.

فِي الدَّيْرِ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَفْعَلَ الْعَكْسَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ. فَبِدَلَالٍ مِنَ الصَّمْتِ وَانْتِظَارِ الرَّبِّ، نَشْعُرُ بِأَنَّنا كَلِمَا عَبَّرْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا أَكْثَرَ كَلِمَا رَبَّحْنَا أَكْثَرَ. عِنْدَمَا تَكْمُنُ الرَّغْبَةُ فِي الْحَصُولِ عَلَى الْكِرَامَةِ فِي قَلْبِنَا، يَنْعَكِسُ ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثِنَا – نَحْنُ نَشَارِكُ بِاسْتِمْرَارٍ بِرَأْيِنَا، نَطْلُبُ، نَقْتَرِحُ تَغْيِيرَاتٍ، نَكُونُ فَضُولِيَّوْنَ فِي مَسَائِلَ لَا تَعْنِينَا... لَكِنَّا نَنْسِي أَنْ صَمْتِ الْقَدِيْسَةِ مَرْيَمَ هُوَ الَّذِي مَنْحَهَا أَنْ تَتَلَّ كِرَامَةً أَنْ تَكُونَ فَوْقَ الشَّارُوبِيْمِ وَالسِّيْرَافِيْمِ، وَلَيْسَ كَلِمَاتِهَا.

"كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟" (يُو. ٤٤: ٤٤).

يَقُولُ الْقَدِيْسُ دِيَادُوخُوسُ الْفُوتِيكِيُّ:

"عِنْدَمَا يَكُونُ بَابُ حَمَامَاتِ الْبِخَارِ مَتْرُوكاً مَفْتُوحاً بِاسْتِمْرَارٍ، فَالْحَرَارَةُ الَّتِي بِهِ تَهْرَبُ سَرِيعاً مِنْ خِلَالِهِ؛ بِالْمِثْلِ النَّفْسِ، فِي رَغْبَتِهَا لِأَنْ تَقُولَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، تَبْدُدُ تَذَكْرَهَا لِلَّهِ مِنْ خِلَالِ بَابِ الْكَلَامِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ كُلُّ مَا تَقُولُهُ صَالِحاً. وَبَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنِ الْفِكْرُ مِنْ خِلَالِ إِفْتِقَارِهِ إِلَى الْأَفْكَارِ الْمَلَانِمَةِ؛ يَصُبُّ إِلَى الْخَارِجِ فَوْضَى الْأَفْكَارِ الْمَشْوشَةِ لِأَيِّ وَاحِدٍ يُقَابِلُهُ، كَمَا لَا يَعُودُ لَهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ لِيَحْفَظَ إِدْرَاكَهُ خَالِياً مِنَ الْخِيَالِ. الْأَفْكَارُ الْقِيَمَةُ تَتَجَنَّبُ دَائِماً الْإِسْهَابَ، لِكَوْنِهَا غَرِيبَةٌ عَنِ التَّشْوِشِ وَالْخِيَالِ. الصَّمْتُ فِي حِينِهِ، حِينَئِذٍ، يَكُونُ ثَمِيناً، وَلَا يَكُونُ شَيْئاً أَقْلَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْأَمُّ لِأَحْكَامِ الْأَفْكَارِ."^(١)

لَا حِظَّ أَنْ الشَّيْخَ ذَكَرَ "الصَّمْتُ فِي حِينِهِ"، وَلَيْسَ الصَّمْتُ فَقَط. صَمْتٌ لَهُ مَعْنَى وَهَدَفٌ. لِذَلِكَ دَعَوْنَا نَسْأَلُ أَنْفُسَنَا هَذَا السُّؤَالَ:

مَاذَا يَقُولُ صَمْتِي لِلْآخَرِينَ؟

(١) الفيلوكاليا النصوص الأصلية الكاملة، ترجمة الراهب القس أغاثون الأنطوني، لجنة التحرير والنشر مطرانية بني سويف (العباسية – الطبعة الأولى ٢٠٠٩) من أقوال القديس دياдохوس الفوتيكي في المعرفة الروحية والإفراز، ص ٢٧٠.

قال الأنبا بمفو، عندما سُئل ليقول كلمة لرئيس الأساقفة البابا ثيوفيلوس عندما زار الأسقيط: "إذا لم ينتفع بصمتي، لا يمكنه أن ينتفع بكلامي" (٢). هنا أتصور أن الشيخ لم يكن يعني ببساطة أن الصمت دائماً ما يكون أكثر نفعاً من التكلم، ولكن لأنه كان مثالاً حياً للكلمات التي ربما كانت ستفيد ضيفه، وبالتالي لم تكن الكلمات ضرورية. وكما ذكر يعقوب الرسول، أننا أحياناً لا نريد أن نسمع إلا كلمات المشورة والتعزية، ولكن نكون أبعد ما نكون عن الاستعداد لتطبيق هذه الكلمات بطرق عملية في حياتنا. والشيء نفسه يمكن أن يكون صحيحاً عندما يتعلق الأمر بالحديث مع الآخرين – فنحن نكون على استعداد لإعطاء أفضل العظات وأقوى المشورات والنصائح، ولكن عندما يأتي الوقت لتطبيق ما نعظ به، نلتمس لأنفسنا ألف عذر. لذلك دعونا نسأل أنفسنا: هل يبني صمتي الآخرين؟ هل يمتلئ بالمحبة للقريب، وباللطف في أفعالي؟ أم أنني أصمت فقط عندما أنزعج، وبالتالي: إبتعادي عن الآخرين يشعرهم ببرودة مشاعري نحوهم؟

هل أنا مثال جيد للآخرين؟ هل يمتلئ صمتي بالتسبيح والصلاة ومن ثمَّ يخلق جوّاً من السلام؟ أم أنه مليء بالتذمر والشكاوي، وبالتالي يخلق جوّاً من التوتر والكآبة؟

هل أدين الآخرين بصمتٍ وأهرب من خدمتهم؟ ... ماذا يقول صمتي للآخرين؟

أود، خلال هذا الصوم، أن نستفيد جميعاً من النعمة التي أعطاها لنا الله: "أن نعيش ونخدم في الدير". دعونا نتذكر الرب في صمتنا طوال يومنا بدلاً من السماح لأفكار التشتت أن تسرق منا وقتنا الهادئ. دعونا نعيد إحياء السكون في قلوبنا، ولنسمع صوت الله يتكلم في قلوبنا.

ليمنحنا الله جميعاً هبة التحدث معه، والخضوع لمشيئته.

ليكن سلام ومحبة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم.

والمجد لله إلى الأبد. آمين.

تفسير المزمور الكبير (مز ١١٨)

للقدیس ثیوفان الناسک

رحلة رهبانية خلال المزمور ١١٨

المقطع الأول (آية ١ - ٨)

(١) طوبى للكاملين طريفاً (الذين بلا لوم)، السالكين في شريعة الرب.

الفرح:

إذا كان يمكننا أن نركض لكي ننال (١ كو ٩ : ٢٤). فما الذي يمنعنا إذاً؟ لماذا توقفنا؟!

فرح لا يوصف قد تم الوعد به. من ذا الذي لا يبغى الفرحة؟! ونحن الخطاة، محبي الخطية، لماذا نحب الخطية؟! لأننا نأمل أن نجد الفرحة فيها. وعلى الرغم من أننا خُدعنا، وبدلاً من الفرحة نجد الألم والعذاب، إلا أننا نستمر في التمرغ فيها، فمن يدري، ربما نجد الفرحة يوماً ما. ونستمر على هذا الحال، كما لو كنا متوقعين أن نحصل على التين من الحسك.

- القدیس ثیوفان الناسک

الجميع ينتغون الفرحة، ولكن لا يعرف الكل كيف يجدونه، كلمات: "طوبى للذين بلا لوم" تبدو وكأنها تقول: أنا أعرف ماذا تريد؛ أنت تريد التطويب؛ حسناً، إذا كنت تريد أن تكون مُطوباً، فكن بلا لوم.

- القدیس أغسطينوس

الطريق الضيق:

صحيح أن هذا الطريق صعب ومليء بالمخاطر. طريق الوصايا نفسه صالح، ولكن أولئك الذين يسرون فيه يفعلون ذلك تحت تناثر الأوحال المتواصل. وعندما تصيبهم، فإنها لا تبقى على السطح ولكنها تتغلغل إلى العمق، ولا يمكن غسلها، ولكن يجب إما أن تُقطع، أو أن تُحرق بالنار.

يصف القدیس مكاربيوس الطريق الضيق بأنه طريق عبر الأشواك والمستنقعات، حيث تقبع الزواحف السامة والحيوانات البرية مخبئة، وحيث تبرز الرماح والسيوف من الأرض. كم من الحرص والجهد والجهاد يتطلبه السير عبر هذا الطريق!

لهذا السبب، فإن كلمة "بلا لوم" في الأصل، هي نفسها الكلمة المستخدمة لوصف الخراف التي كانت تُفرز لتذبح في الفصح. وهذا يعني أن أولئك الذين يسرون في طريق حفظ الوصايا، من أجل أن يصبحوا بلا لوم، يجب أن يحكموا على أنفسهم بالتذبح.

فقط من قرر، ومنذ البداية، أن يعتبر نفسه كميت، يستطيع أن يحتمل التجارب والصعوبات؛ لأنه ما الذي يمكن أن يكون غير محتملاً لمن كان ميتاً بالفعل؟! لأن كل هذا هو أقل من الموت. وهذا ما كان يقصده الرب بقوله: "إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ" (مت ١٦ : ٢٤).

ولكن ماذا عن الوفاء بالتزاماتنا لبعض الوقت، وعدم الالتزام بها في أوقات أخرى؟ أَلن يكون ذلك أسهل بالنسبة لنا؟! لن نستفيد شيئاً من التصرف على هذا النحو. لأنه سوف يكون هذا مثل من يبني ثم يعود فيهدم. هناك شيء واحد يجب علينا فعله: ما دمنا قد بدأنا فلننطلق!

- القدیس ثیوفان الناسک

الذي يسلك بلا لوم، لا يجيد لا لليمين ولا لليسار؛ لا ينظر حوله، ولا يقف ساكناً كما لو كان ينتظر شيئاً، ولكنه يمضي قدماً: "أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءٌ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قَدَامٌ، أَسْعَى نَحْوَ الْعَرَضِ لِأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللَّهِ الْعَلِيَا" (في ٣ : ١٣، ١٤).

- ثيودوريت